أ.د. حسنا مرسي

ما من مفكر بيننا اليوم الا ويذكر بالاحترام والاجلال رفاعة رافع الطهطاوي ذلك العملاق الذي أثرى الفكر العربي الحديث كما لم يثره أحد من قبل أو من بعد ، فاليه يرجع فضل ارساء قواعد الحركة الفكرية التي أمكنها أن تحطم أغلال الجمود الفكري الذي عاشته مصر قرابة ثلاثة قرون لم تر فيها من نور المعرفة والعلم شيئا اللهم الا علوم النقول والعقول التي كانت تدرس في رحاب الأزهر منار العلم الوحيد في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ بلادنا .

وقد بدأ رفاعة تعليمه في مدينة طهطا بصعيد مصر ، فحفظ القرآن الكريم ثم رحل الى القاهرة وهو في حوالي السادسة عشرة من عمره ، والتحق بالجامع الأزهر ودرس على عدد من شيوخه وأمضى بالأزهر ستة أعوام يتخرج بعدها وعمل مدرسا في الأزهر مدة عامين الى أن عين واعظا وإماما لاحدى فرق الجيش المصري .

غير أن ثقافة الطهطاوي لم تقف عند هذا الحد بل تخطت علوم الأزهر الى آفاق أكبر وارحب ، فتأثر بالعلوم العصرية التي جاءتها الحملة الفرنسية ويرجع الفضل في ذلك الى الشيخ حسن العطار الذي تميز عن سائر شيوخ عصره بمعرفته لتلك العلوم .

وهكذا بدأ اهتمام الطهطاوي بالثقافة الأوربية في مجالات التاريخ والجغرافية والآداب واللغة .

ولكن التحول الأكبر في حياة الطهطاوي لم تتحدد معالمه الا بعد أن سافر الى باريس إماما للبعثة العلمية التي أرسلها محمد علي لدراسة مختلف العلوم التي أراد أن يدعم بها نهضة مصر الحديثة .

وكان رفاعة الطهطاوي مثالا للطموح فهو لم يكتف بأن يكون إماما للبعثة بل دفعه حبه للعلم الى السعي ليكون عضوا في تلك البعثة إلى جانب قيامه بواجبات امامته لها ، وجد واجتهد الى أن تحقق له الأمل .

وأقام رفاعة في باريس قرابة خمسة أعوام ، درس خلالها عددا من العلوم والمعارف واهتم اهتماما خاصا بالنحو الفرنسي والتاريخ والجغرافية ، وقرأ كثيرا في المنطق والفلسفة والسياسة والادب والقانون .

وعندما عاد الى مصر تولى عددا من الوظائف الهامة وشارك في التخطيط لنظام التعليم ، ولا عجب فقد كان أديبا وعالما ومترجما ومربيا ومؤلفا ومؤرخا وعالما

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

"أنثروبولوجيا" وطبعا ليست هي في الواقع أكثر من هذا كله ، وحسبك أن تقرأ ما كتبه رفاعة الطهطاوي عن "الإنسان" لتدرك أن الرجل لم يتل بعد ما تعلمته من دراسة وتدريس .

ومن هذه الكراس أختارت رفاعة الطهطاوي اللغوية ... يطيب لي هنا أن أشير بعجالة الى الدراسات القيمة التي أسهم بها عدد من كبار الأساتذة في الصيدلية الذين تألفت المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في شهر ديسمبر من عام ١٩٥٨ والذي عقد في مدينة القاهرة . وإنه لشرف عظيم أن أتحدث اليوم في هذه الندوة وبمناسبة مرور مائة عام على وفاة رفاعة رافع الطهطاوي وتأثيره في هذا البحث جانبا واحدا من جوانب هذا العالم الجليل وهو اهتماماته اللغوية .

أول ما يستوقف الانتباه في هذه الاهتمامات هو محبة الطهطاوي للغة الفذة في حياة الإنسان فهي الصلة التي اختص الله بها الانسان دون سائر المخلوقات الأخرى فالإنسان حيوان ناطق وهو يتكلم بعدد محدود من الأصوات والمفردات يتولى الناشئ فيها أن يتقن أول الأمر . وهذه البداية في الحديث لا تتأتى لبقية الحيوانات والطير التي لا تعي تتكلمها — ولا أقول لغاتها — من عدد محدود من الأصوات التي تكون في عدد محدود من الأبنية والتي تعلو من شأن الابتكار والتنوع اللانهائي الذي تتميز به لغة الإنسان وقد أطلق الطهطاوي على هذه القدرة اللغوية والنزعة عند الانسان اصطلاحا محددا هو "الناطقية" وشرح لنا المعلم رفاعة هذه "الناطقية" عند الانسان بقوله :

"خصه الله سبحانه وتعالى قوة الكلام ، وخصه بقوة الفكر ، والتمييز والافهام ليدرك بها الأشياء التي حوله من المعلومية والمجهولية والموجودية والمعدومية بين الأشياء الخفية والمعاينة ...."(١)

ويعزو الطهطاوي أهمية اللغة في بناء الشخص ، فهي الحافظة لجميع أنواع الأعمال الانسانية ، فما طابقه هي التي مكنته من أن تقوم التنظيم الاجتماعي الذي هو الانسان في حله وترحاله ، وفي هذا يقول شيخنا رفاعة :

---

(١) الفصل الخامس ص ٣١٢ من كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين في الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي دراسة وتحقيق محمد عاطف الطبعة الأولى ١٩٧٣ — الشركة المصرية للطباعة والنشر — بيروت لبنان)

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

" لو لم يكن الانسان مخلوقا للتأنس مع اخواته والاجتماع مع أقرانه ليصنع معهم هيئة اجتماعية ، وحالة عمران تمدينه لم يكن لتخصيص الحكمة الالهية لهيئة الناطقة كبير مزيه ....." (١)

فهيئة الناطقة واللغة - كما نقول اليوم - هى التى جعلت الانسان يحقق كل هذا فهى اداة الاتصال التى لولاها ما قامت للمجتمعات الانسانية قائمة سواء فى ذلك .... المجتمعات البدائية أو المتحضرة .. وفى هذا يقول الطهطاوى :

" الناطقية (موجودة) فيه من أصل الفطرة ، يمكنه اعمال قواه العقلية بامعان الفكرة فيسعى لها فيما للتمدن والحضارة ويبذل جهده بجوز ما ينتج عن التمدن بالبراعة والمهارة ، لانه انفرد وحده ولم يتأنس لغيره ، ولا اكتسب لوحشه درجة العمران ، كان دائما ضعيفا خائفا ، وعن جادة الامن خائفا ..." (٢)

فاللغة ، أو ما أسماه الطهطاوى " الناطقة " هى سر التقدم والحضارة فى كافة شعوب الارض ، ولولا اللغة ما احتفظ الانسان بتراثه على مدى ملايين السنين .

وعندما يتحدث الطهطاوى عن اللغة .. فهو يعرف حق المعرفة أن الاصل فيها أن تكون كلاما أى مشافهة ولذلك تجده قد اهتم اهتماما بالغا باللغة المنطوقة وهو لا يذكر فى كتاباته لفظا أجنبيا الا ويوليه من العناية فى الضبط ما يضمن النطق به واليك بعض الأمثلة على ذلك .

" ومن المعالى العلمية بمدينة لريس .. موضع يقال له الكنسرواتوار بضم الكاف وسكون النون وكسر الراء وسكون الواو وسكون التاء ..... " (٣) .

ويقول فى نفس المقالة :

" ... ومن أشهر المدارس مدرسة بوليتكنيكا بضم الباء وكسر اللام وسكون الياء والقاف وكسر التاء والنون وسكون الياء ..... " (٤)

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣١٢

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣١٢

(٣) تخليص الابريز فى تلخيص باريز لرفاعة رافع الطهطاوى الطبعة الثانية القاهرة بولاق ١٢٦٥ هـ ص ١٣٧ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٤٢ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com